مروا من هنا ... مصطفى كمال أتاتورك



Binbaşı Mustafa Kemal, Trablusgarp, 1911.

مصطفى كمال مع مجموعة من ضباط الجيش العثماني والمجاهدين الليبيين سنة 1911 م إثر وصولهم إلى برقة

«شَــهِد عــام 1881 مَوْلِــد الشــخصيَّةِ صاحبــة الدور الرئيــسي في تأســيس تركيــا الحديثة، وذلــك في مدينة ســالونيك التابعــة للإمبراطورية العثمانيــة وقتئذٍ (التي تُعرَف الآن باســم ثيســالونكي، وهي جزء مــن اليونان) لأسرة تركية مســلمة متواضعة، كان أبوه موظفًا بســيطًا في الجــمارك، وقد أطلق أحد المدرســين على ابنه اســم كــمال؛ وهو الاســم الــذي احتفــظ به طــوال حياته، أصبــح كمال ضابطًا في الجيش، وكان سِــجِلُّه أثناء الحرب العالميــة الأولى ســببًا في تحوّله لبطل قومــي، ومن أبرز ما تضمَّنَــهُ هذا السِّــجِلُّ: صدّ محاولة الحلفــاء اقتحام مضيــق الدردنيل في معركــة جاليبولي، كانت الســلطنة العثمانيــة — التي ســاندت الجانب الخــاسر في الحرب — خائــرةَ القــوى في ذلــك الحــين، واحتلَّــت القوات البريطانيــة والفرنســية والإيطالية إســطنبول، بينما غزا اليونانيــون الأناضــول، وقــد كان مصطفــى كمال أكثر قــادة المقاومــة التركية تأثــيرًا، وتمكَّن مــع مُؤيِّديه من تأســيس حكومة وعاصمــة تركية جديــدة في أنقرة عام 1920 حيــث انضم إليه العديــد من الشــخصيات التركية البــارزة، وتحت قيادته اجتمــع البرلمان وأُعْلِنَ إلغاء الســلطنة العثمانيــة، ثم طُرِدَت القــوات اليونانية من البلاد، وتأسســت الجمهورية التركية رســميًّا عام 1923 برئاســة مصطفى كمال».

هكــذا يحاول الكاتب (ريتشــارد كافنديــش) تلخيص حيــاة مصطفى كمال أتاتورك في أســطر قليلــة، لكن حياة هذا الأخــير من الصعب تلخيصهــا، فالرجــل الذي صار رمزا ومؤسِّــسا لتركيا الحديثة كُتِب عــن حياته آلاف الكتب والمقالات والدراســات، التــي تنوعت انطلاقا من تنــوُّع توجُّهــات كُتابها وميولهــم الفكرية، ومهما يكن من أمر فــإن حياة الرجل عامرة بالأحــداث الفاصلة في التاريــخ، مُزدحمة بالمغامرات والحــروب والسياســة والأفكار، محطــات كثيرة مر بها مصطفــى كمال قبل أن يصبــح (أتاتورك:أي أبو الأتــراك) و (ليبيــا) كانت واحدة من بــين هذه المحطات التــي أثَّرت في تاريــخ مصطفى كمال.

Trablusgarp, 1912.

مصطفى كمال مع مجموعة من ضباط الجيش العثماني والمجاهدين الليبيين سنة 1911 م إثر وصولهم إلى برقة

في ســبتمبر ســنة 1911 أعلنــت إيطاليا بدايــة حملتها لاحتــلال ليبيا، التــي كانــت آن ذاك تخضع لســلطة الدولة العثمانيــة التي أخذ الضعف يدبُّ في جســدها، وبــدت وكأنها تغــرق في بحر مــن الأزمات السياســية والعســكرية والاقتصاديــة وتفقــد كثيرا مــن أراضيها، وبعد إعــلان الحرب توجَّه مصطفى كــمال -وكان يخدم في الجيــش العثماني آن ذاك- رفقــة مجموعة من زملائه إلى ليبيــا، لم تكن طريقهم ســهلة، فقد عــبروا الأناضول إلى الشــام ثم مصر، وهنــاك كانت انجلتراتشــدِّد على حراســة الحــدود الغربيــة لمنع التســلل، مِــمَّا اضطرَّ مصطفــى كمال ورفاقــه للتأخر قليلا إلى حــين تمكنوا و بمســاعدة بعض المصريين مــن عبور الحــدود، ووطئت أقدامهــم أرض ليبيا للمــرة الأولى، الضابــط الصغير في الجيــش العثماني يخترق صحــراء وجبــال وأودية برقة، متوجهــا للحرب مــع زملائه.


أنور باشا على اليمين، وبجانبه مصطفى كمال ومن خلفهما مجموعة من المجاهدين الليبيين، رسم تم تعديله عن صورة مطابقة التقطت سنة 1912 م

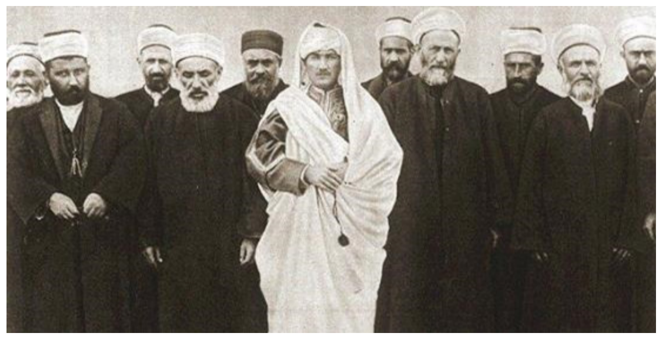
بعـد فـترة وجيزة مـن وصوله حيث كانـت الحرب قـد اندلعت، والسـفن الإيطاليـة بدأت بالقصـف والإنزالات على شـواطئ ليبيا من طرابلـس إلى بنغـازي، توجّه إلى (أنور باشـا) القائـد العثماني البـارز الذي كان قد سـبق مصطفى كمال في الوصـول، وبدأ تنظيم صفوف المجاهديـن الليبيين هنـاك وتجهيزهم للقتـال، في منطقة بـو منصور في مدينـة درنة كان لقـاء مصطفى كـمال بزميله الذي لطالمـا كان مختلفا معـه في كثير مـن الأمور، لكـن يتمتع كلاهما بقـدرات قيادية بـارزة واحترام متبـادل، لذلك رحّب به أنور باشـا وعيّنه عـلى الفور بجانبه قائـداً لإحدى الفرق العسـكرية المرابطة على سـواحل مدينة درنة.

بعـد اسـتلامه لقيادة إحـدى فرق المجاهديـن، بدأ مصطفـى كمال العمـل الميداني الذي تعـوّد عليه واكتسـب فيه خـبرة طويلة عبر انخراطـه في الجيـش العثـماني وخوضه عدة حروب سـابقة قبل دخولـه الحرب ضـد إيطاليا عـلى الأراضي الليبية، خاضـت فرقته عدة معـارك في درنـة وضواحيهـا، وتلقى هو إصابـة خطيرة لكنه نجـى وشُـفِيَ منها، كـما كان يُشرف مع أنور باشـا على إعـداد وتدريب المقاتلـين الجُـدد وتأمين خطـوط الإمداد الضعيفـة للمجاهدين الذين نجحـوا في صدّ الأسـطول الإيطالي مدة طويلة وظـل غير قادر على التوغـل في الشـواطئ، رغم الفارق الشاسـع في الامكانيـات القتالية، عدداً وعـدة وكفاءة.



مصطفى كمال وحوله مجموعة من الضباط والمجاهدين في أحد المعسكرات 1912

اندلعـت الثورة ضـد العثمانيـين في البلقان في أكتوبر سـنة 1912 وازداد موقـف الدولـة العثمانيـة ضعفا وأصبح الخطـر هذه المرة قريبـا مـن عاصمتهـا، وسـاءت الأحـوال في البلقان مـما اضطُّر العثمانيـين للتوقيع عـلى معاهدة اوتشي لوزان مـع ايطاليا، وقامت قيـادة الجيـش العثمانية باسـتدعاء كل من أنور باشـا ومصطفى كمال على وجـه السرعة، والّذَيْـنِ عبَّرا بطريقة مختلفـة كما اعتادا الخـلاف دائما، وغادر كلاهـما الأراضي الليبية للمـرة الأخيرة، لِتُطوى صفحة مـن صفحـات تاريخ مصطفى كـمال الـذي كان عمله في ليبيا أحد أسـباب كثيرة لشـهرته في الجيش العثـماني، وكان خروجه مـن ليبيا وعودته لبـلاده في تلك الأحوال المضطربـة بداية للمرحلة الأهـم في حياته حيث سـيبرز قائـدا وزعيما لبلاده التي سـتصبح لاحقـا «تركيا» وسـيصبح هو «أتاتـورك» وستشـهد أحداثا فاصلة وتغـيُّرًا جذريا قلـب موازيـن المنطقـة برمّتها، ولايـزال موضوعا للجدل والدراسـة حتـى يومنا هذا.



وكـما الأثر العسـكري والقيادي، فقـد تركت المرحلـة التي قضاها أتاتـورك في ليبيـا أثـرا فيـه، ثقافيا ومعرفيـا شـخصيا بعيدا عن الجوانب العمليـة، فكان يلبس الـزي التقليدي الليبـي بإتقان، ويعـرف القبائـل والعائلات في مناطـق درنة والجبـل الأخضر وكان أحيانـا مـع أنـور باشـا يعمـلان عـلى حـل بعـض الاشـكالات الاجتماعيـة التـي تحـدث هنـاك، تلـك كانـت لمحـة بسـيطة ومختصـرة عـن محطـة قصـيرة في حياة أتاتـورك الحافلـة بالأحـداث.





أتاتورك بالزي التقليدي الليبي